جورج جقمان*

رجل الحلم والعزم، رجل المهمات الصعبة

لقد سنحت لي فرصة العمل عن قرب مع الدكتور جابي برامكي عندما أصبحت رئيساً لدائرة الفلسفة والدراسات الثقافية بدءاً بنهاية سنة ١٩٧٦. وكنت أنهيت الدكتوراه قبل ذلك ببضعة أشهر، لكنه كان يعرفني جيداً، نظراً إلى قيامي بالتدريس في ثلاث دورات صيفية قبل ذلك في "كلية بير زيت"، خلال إجازات الصيف التي عدت فيها إلى البلد من الولايات المتحدة.

واستمر عملي معه، وبشكل أقرب، عندما عُينت عميداً لكلية الآداب خلال الفترة ١٩٨١ ـ ١٩٨٥، وخصوصاً من خلال جلسات مجلس الجامعة الطويلة والمجلس الأكاديمي أيضاً، واللجان المتفرعة عن هذه المجالس. وبعد تحوّل الكلية إلى جامعة، بقيت العلاقة بين أعضاء هذه المجالس وثيقة، نظراً إلى عددهم القليل نسبياً في مراحل تطور الجامعة الأولى. وكان من السهل رؤية الدكتور برامكي، أو طلب موعد منفرد معه إن لزم الأمر، على الرغم من مشاغله الكثيرة التي لم تقتصر على الجانب الأكاديمي وحده.

ومَن عرف الجامعة فقط بعد إنشاء السلطة الفلسطينية، ربما يصعب عليه تصور وضع الجامعة وهي تحت الاحتلال العسكري المباشر. فقد كان حضور الاحتلال يومياً، أو شبه يومي: اعتقال طلبة؛ اعتقال مدرسين؛ دوريات أمام الجامعة تشتبك مع الطلبة في كثير من الأحيان؛ إحياء مناسبات وطنية تنتهي بمحاصرة الحرم القديم من طرف جيش الاحتلال. كان هذا روتيناً معروفاً ينتهي بقيام الدكتور برامكي بالتفاوض مع الجيش لإحضار حافلات لإعادة الطلبة إلى بيوتهم سالمين.

لم يكن الأمر دائماً سهلاً: ففي معظم الأحيان كان الجيش يريد اعتقال بعض الطلبة بعد حصار من هذا النوع، وأحياناً، كان لديهم صور أو حتى أسماء، وأحياناً لا. وفي كثير من حالات حصار الحرم القديم هذه، كان جنود الاحتلال يقتحمون المباني من أجل اعتقال الطلبة أو بعض المدرسين، أو قد تستمر المفاوضات حتى ساعات الليل المتأخرة.

أعباء كبيرة حقاً كانت ملقاة على كاهل الدكتور برامكي. لقد كان هو المسؤول الأول بعد إبعاد الدكتور حنا ناصر في سنة ١٩٧٦، الذي اتُّهم بقيادة تظاهرة في شوارع بلدة بير زيت. وعلى الرغم من متابعة الدكتور حنا التفصيلية للأوضاع في الجامعة بعد ذلك من مكتبه في عمّان، فإن الدكتور جابي كان هو

* رئيس دائرة الفلسفة والدراسات الثقافية ـ جامعة بير زيت.

المسؤول "الميداني" المباشر إن جاز التعبير، أكان ذلك يتعلق بالجانب الأكاديمي، أم بممارسات الاحتلال واستهدافه الجامعة.

أقول "استهداف" لأن الحركة الطالبية في ذلك الوقت كانت ترى نفسها امتداداً لمنظمة التحرير الفلسطينية في الداخل، فقد كان لها شأن كبير في مقاومة الاحتلال، وفي أعمال وأنشطة متعددة ومتنوعة خارج الحرم الجامعي أيضاً. لكن هذا الوضع، ولعدة أسباب، تغيّر بعد قدوم قيادة منظمة التحرير الفلسطينية إلى الداخل بعد اتفاق أوسلو، وفقدت الحركة الطالبية دورها السابق إلى حد بعيد. كان الجميع يشعر بمسؤولية كبيرة في غياب القيادة خارج الوطن، وكان لأحزاب منظمة التحرير وفصائلها في الداخل شأن كبير أيضاً كامتداد للمنظمة في الخارج، ومنها تشكلت القيادة الموحدة للانتفاضة الأولى، التي تمثّل فيها عدد لا يستهان فيه من خريجي جامعة بير زيت. لقد كانت الجامعة أيضاً معهداً للتدريب على العمل السياسي والوطني، وكانت التعددية السياسية فيها إحدى أبرز سماتها وما زالت حتى اليوم، إذ إن هذا الجانب ربما يكون إحدى أهم ميزات جامعة بير زيت فيما يتعلق بجو الحريات فيها وتوجّهها الديمقراطي.

ولم تكن مهمات إدارة الجامعة سهلة أو بسيطة. فمنذ بدأت العمل بتفرغ في الجامعة حتى إغلاقها في بداية سنة ١٩٨٨، لأربعة أعوام ونصف عام، لا أذكر أن عاماً واحداً مر من دون أن تغلَق فيه الجامعة بأمر عسكري. وكان الحاكم العسكري يستدعي الدكتور جابي بعد كل صدام كبير بين الطلبة والجيش، وأصبحنا بعد مدة نتوقع متى يتم تسليمه أمر الإغلاق، ومتى يناله تحقيق وتوبيخ فقط. وكانت مدة الإغلاق تتراوح بين شهر واحد وثلاثة أشهر. وفي أحد الأعوام، في أواسط الثمانينيات قبل بداية الانتفاضة الأولى، أغلقت الجامعة تسعة أشهر.

كان الدكتور جابي "رجل المرحلة" بمعنى من المعاني. كان على تواصل مستمر مع الطلبة، وخصوصاً قيادات الحركة الطالبية، وكانوا يعرفونه جيداً ويثقون به. كان أيضاً بينهم تفاهم ضمني على الأدوار نشأ بفعل الممارسة والنقاش والحوار، ولم يخلُ هذا التفاهم من توتر أحياناً، لأن مسؤولية الدكتور جابي كانت إبقاء الجامعة مفتوحة وغير مغلقة. لكن الجميع كان يعرف ويدرك أنهم في الصف نفسه والجبهة نفسها.

وقد أدت صفات الدكتور جابي الشخصية دوراً مهماً في تيسير إدارته للجامعة في أوضاع صعبة حقاً، سواء في جانبها الأكاديمي أو "الميداني"، إذ نادراً ما كان ينفعل أو يتصرف بعصبية ظاهرة، وكانت رباطة جأشه وبرودة الأعصاب الضرورية في أوقات الشدة من سماته.

كان مؤدباً جداً في حديثه مع المدرسين والطلبة، وطوال عهدي به عبر الأعوام، وفي أوضاع صعبة أحياناً، لم أسمع منه كلمة نابية، أو ما يقارب أن يكون شتيمة تجاه أي من الزملاء أو الطلبة. مناسبات عدة ومشاهد عدة من هذا النوع مرت، أذكر إحداها، على سبيل المثال لا الحصر: خلال إغلاق الجامعة لأربعة أعوام ونصف عام، جرى إعداد مكاتب موقتة في رام الله لمتابعة إدارة الجامعة والتدريس الجزئي خارجها، وكان مكتب الدكتور جابي في مبنى مجلس الأمناء في رام الله في الطبقة الثانية منه. وذات صباح، أتى أحد الطلبة من الذين كانوا على وشك التخرج غاضباً مزمجراً طالباً رؤية الدكتور جابي، فأعلمه الحارس أن لديه اجتماعاً في الداخل، فغضب واقتحم المكتب وكسر الباب بضربات

من رجله، ثم أخذ يصرخ في وجه الدكتور جابي. بعد فترة من الوقت خرج هادئاً كأن شيئاً لم يكن. كنت أنا في الخارج ولم أدرِ ما جرى في الداخل، لكن في حفل تأبين الدكتور برامكي في جامعة بير زيت رأيت الطالب نفسه بين الحضور، مرتدياً بدلة محترمة وربطة عنق ومصفقاً بحرارة بين الحين والآخر.

ولم تكن إدارة الجانب الأكاديمي في عمل الجامعة أقل يسراً، فقد أشرف الدكتور برامكي على تطوير البرامج الأكاديمية وتابعها بتفصيل في المجالس ذات العلاقة، وجرى تطوير أول برنامج لشهادة الماجستير في فلسطين في التربية مباشرة بعد تحوّل الكلية إلى جامعة، وتخرّج من البرنامج عدة طلبة أصبحوا بعد ذلك مدرسين في الجامعة بعد حصولهم على الدكتوراه في الخارج. كان حريصاً جداً على مستويات التعليم، ومستويات أعضاء الهيئة التدريسية الجدد، من حيث خلفيتهم الدراسية ومؤهلاتهم. وخلف هذا الاهتمام كمنت رؤية استراتيجية للمكانة المرجوة لجامعة بير زيت من حيث نوعية التعليم ومستواه، الأمر الذي أشار إليه وتحدث عنه مراراً في المجالس واللجان ذات العلاقة، محذراً في الوقت نفسه من التوسع السريع غير المدروس، وواضعاً بهذا معياراً سعى مَن عملوا معه وشاركوه في تطوير الجامعة، لإبقائه نصب أعينهم أيضاً.

لقد كانت اهتماماته كشخص وكإنسان متعددة ومتنوعة، ولم يكن فقط أكاديمياً متخصصاً ذا اهتمام ضيق من دون أي اهتمام بحقول وأبعاد أرحب كما يحدث أحياناً مع بعض الأكاديميين.

وانعكس هذا أيضاً في عمله في الجامعة، من تشجيع لبناء وتطوير شخصية الطلبة، من خلال المشاركة في أنشطة لا منهجية، كالرياضة والموسيقى والمسرح، وإن كان بحدود ما هو متوفر من إمكانات في حينه. وفضلاً عن محبته الشعر واهتمامه به، كان أيضاً يعرف ويحفظ عدداً كبيراً من الأمثلة الشعبية التي كان يستخدمها بين الحين والآخر في أحاديثه، بما في ذلك في اجتماعات رسمية، لإيضاح نقطة، أو تسجيل اعتراض، أو إبداء تساؤل. وقد تعلمت عدداً منها بدوري، وأصبحت أستخدمها بين الحين والآخر. وأشير هنا إلى أحدها على سبيل المثال لا الحصر، وهو يحمل في معناه الإشارة إلى أهمية المستويات والجودة والإتقان في العمل، أو حتى أنه في السياق الأكاديمي، فإن الشهادات الجامعية ليست وحدها دليلاً كافياً على المستوى والنوعية وانعكاسه في العمل، والمثل هو: "مش كل من يفرد صواني صار حلواني".

ولعل أهم ما يمكن أن يقال عن الدكتور جابي لمَن عملوا معه أو عرفوه من الطلبة في الفترة التي تحولت فيها كلية بير زيت إلى جامعة، وبعد ذلك حتى إنشاء السلطة الفلسطينية، أنه مثّل مرحلة فيها تحديات كبيرة أكاديمية ووطنية، وأنه جسّد بشخصه الحكمة والمهارات الضرورية والفريدة أحياناً، واللازمة للقيادة وللنجاح في أوضاع صعبة.

لقد اجتمعت وتداخلت ثلاثة عناصر هي: وجود الاحتلال المباشر؛ دور الجامعة بطلبتها وعامليها داخل الحرم الجامعي وخارجه؛ قيادة الدكتور جابي لها في تلك الحقبة. كان جابي حقاً رجل هذه المرحلة، رجل التحديات الكبيرة والمهمات الشاقة والطموحات الواعدة، على الرغم من ذلك كله. ■